المصدر: الدستور
التاريخ: ١٩٩٧/٥/١٤

السادات ابن عصره

■ السادات كان يتعامل مع الديمقراطية كأنها منحة عيد العمال .. يصرخ الجمهور فى القاعة «المنحة ياريس» فيعطيهم رئيسهم المنحة ■ التعديل الذى تم فى ديكور الديمقراطية أيام السادات يشبه نقل الأنتريه .. ووضع الصالون مكانه

صديقى العزيز محمد عبد القدوس

يغرم البعض بالكلام عن الزعماء السياسيين ووصفهم بصفات من قبيل الخائن، العميل، البطل، سابق عصره، قائد ملهم، الخالد، وهى كلها صفات قاطعة نهائية تحمل جملة الأراء ومحصلة الرؤى فى هذا الزعيم السياسى.

لكن غراما من هذا النوع لم يصبنى حتى الأن، ومن ثم فإننى أحاول التحرر من الأحكام النهائية القاطعة واتمسك بالحكم القطاعى على تصرفات وسياسات بالجملة.

ومن هنا اتكلم عن السادات.

والسادات من الشخصيات التى تجر وراءها حالة من الغضب الممزوج بالشبق فى كراهيته، أو الهيام الجنوح بحبه، وفى كل الأحوال تتنازع الرجل هذه المشاعر من هؤلاء، وهؤلاء، حتى تكاد تفقد الرؤية تجاهه فلا تعرف من هو، هل هو هذا الشيطان السياسى المكروه المذموم، أم هو هذا الملاك الطاهر الذيل السابق لعصره؟!

ومن أشد الأمور غرابة أن تجد من يريد التعامل مع السادات على نحو التعامل مع شخص قابل للقراءة دون وجهة نظر مسبقة، وإذا كانت نقطة البدء، أننا الأن فى ذكرى حركة مايو ١٩٧١ فإننى ازعم أنها لم تكن حركة ولا ثورة، ولاينطبق عليها ما ينطبق على الحركات السياسية بالغة الأهمية جذرية الأثر، ولا ينطبق عليها ما هو مطلوب فى الثورات كى تصبح ثورة، وأن هذه الأسماء، ما هى إلا أسماء سميتموها كجهاز

إعلامي طاحن التأثير في الراى العام بغرض نفاق أنور السادات وعهده وعهدته من الرجال والحواريين، ولما انتهى الرجل انتهت زفة الإحتفالات المقيتة بهذه المناسبة التى لاتعدو أن تكون صراعا على السلطة حتى أن ما قيل حول القضاء على مراكز القوى وهى أضعف ما قيل نفاقا فى السادات اغفل امرا مهما، وهو أن السادات كان كذلك مركزا للسلطة وللقوة فى ذلك العهد، بل وكان بحكم منصبه رئيسا للجمهورية بعدما كان نائبا، وكان واحدا من خمسة على ما اتذكر ممن أناط بهم عبد الناصر إدارة شئون البلد فى حالة مرضه، وأن الأمر كله انتهى إلى صراع على السلطة حيث كسب مركز قوى (وهو السادات) مراكز قوى أخرى (هم باقى المجموعة) فالحاصل - والحال هكذا - أن مركزا للقوى انتصر على باقى المراكز ولم يحدث أن قضى على مراكز القوى إطلاقا، بل ظهرت مراكز قوى أخرى اكثر اثرا وأهمية منها السيدة جيهان السادات (ولى أن أسجل إعجابى بها دائما) والنبوى إسماعيل وعثمان أحمد عثمان.. فأى مراكز قوى تلك التى يتحدثون عنها؟

أما إذا عدنا إلى الصراع على السلطة أثناء مايو ١٩٧١ فلو كنت حاضرا ومؤثرا وقتها - وهو افتراض خيالى بحت - لكنت قد اتخذت موقف الأستاذ محمد حسنين هيكل، أى كنت أتضامن مع السادات فهو (وكل الأمور صارت بعيدة إلى الحد الذى نستطيع معه الرؤية ببصيرة) أقل فاشية وعنفا وضراوة وعسكرية من هذه المجموعة التى

أطيح بها فى مايو ١٩٧١، بل ولعله اكثر سياسة وحنكة وذكاء منهم جميعا وهو ما أبانته الأيام بعد ذلك، كما كانوا جميعا شخصيات مولودة فى السلطة معقمة بالنفوذ ومحمية بالسلطان ولم تكن قريبة من الناس ولا الشعب ولا المجتمع ولا حتى التنظيمات السياسية وكانوا فاقدى الجذور بالأمة الأمر الذى جعل من رحيلهم شيئا سهلا عابرا بلا دموع(!!) الذى يقول إن حركة مايو جاءت انتصارا للديمقراطية فالحقيقة - فى ظنى - أن ايمان السادات بالديمقراطية يشبه إيمان الثعلب بسور الجنينة حيث يدرك أنه فى أى لحظة يمكن أن يتسلق السور ويعبر لفريسته بل إن سور الجنينة حماية وهمية للدجاج حتى يأنس ويطمئن غزو الثعالب( ) لم يكن السادات مؤمنا بالديمقراطية فى يوم من الأيام.

كان مؤمنا بالسلطة

وحسبما كانت السلطة تملى كان يملى عليه ويكتب

والسادات كان - حتى مقتله - على قناعة راسخة بأنه فرعون يحكم مصر كما يحكمها الفراعنة ولم يخف على أحد أنه كان يعتبر نفسه وجمال عبد الناصر اخر الفراعنة(!!).

وكان السادات فى الحقيقة امتدادا لكل موروث ثورة يوليو فى الحكم الشمولى والقرار الفردى والجنون بالذات والسلطة وجو التآمر والقرارات الكاكية الكابية وغياب الشعب والراى العام وافتقاد حرية التعبير وحرية التغيير

لقد كان السادات يتعامل مع الديمقراطية كأنها منحة عيد العمال يصرخ الجمهور فى القاعة المنحة يا ريس فيعطيهم رئيسهم المنحة(!!) وليس هناك دليل على عدم إيمان السادات بالديمقراطية قدر دليل واحد هو أنه كان يتراجع عنها بمزاجه وقتما شاء، شورية معاها وشورية ضدها، وشورية ديمقراطية غربية وشورية ديمقراطية بأنياب ومخالب.

إن شغل الحواة السياسيين كان أقرب إلى روح منهج السادات فى التعامل مع الديمقراطية وهى مجرد شكل وديكور لا ينم فى تصرفاته على أنه يحترمها أو يبجلها أو يقدسها، ولم يختلف فى ذلك عن سلفه الراحل جمال عبد الناصر إلا فى بعض

المبررات الزلقة اللزجة عن غياب الديمقراطية بشكلها الواقعى المباشر الذى تعرفه من حرية فى الترشيح فى كل المناصب بداية من منصب رئيس الجمهورية وحتى أصغر عضو مجلس محلى. ونزاهة التصويت وغياب التزوير والترييف لإرادة الأمة!

لا حصل أيام عبد الناصر ولا حصل أيام السادات ولا حصل بعدها.

ومن ثم فمع اختلافات نسبية ضئيلة فالحال هو نفسه لايختلف من جيل حكام ثورة يوليو ونظامها إطلاقا. ولايمكن أن يكون الرجل (السادات) ديمقراطيا وهو يقوم بانتخابات ٧٦ شبه النزيهة ويكون هو نفسه الرجل الذى يزور الانتخابات فى ١٩٧٩. إنه أحد أمرين إما أنه شغل حواة أو ازدواج فى الشخصية السياسية..

لكنه فى النهاية تعبير عن فقدان روح الديمقراطية تماما.

صحيح أن تعديلا طفيفا فى ديكور الديمقراطية قد تم أيام السادات، يشبه نقل الانتريه ووضعه مكان الصالون أو أوضة السفرة صحيح انه كان حريصا على الشكل الأمريكى أو الإنجليزى فى الديمقراطية لكنه لم يكن صادقا ولا مؤمنا بذلك.

ولم يتسع صدره لذلك.
ولم يصبر على ذلك.
فنسفه كله.

لم نعهد إذن فى أى حقبة مرت وعبرت على رقبتنا فى مصر احتراما للديمقراطية أو تعاملا بها. كذلك لم نعدم منهج الفساد(..) لكن يبقى هنا أنه كان أخف وطأة وأقل حدوثا وأضيق تأثيرا فى فترة عبد الناصر، ربما بسبب قلة الثروة وطهارة عبد الناصر الشخصية وإن لم يعدم ذلك من الاستيلاء على ثروات الأمراء والحراسات والقصور والبيوت والأراضى والمصاهرة مع الإقطاع وسرقة مجوهرات أسرة محمد على وما إلى ذلك.

لكن كما قلت كان أخف وطأة.

لكن المدهش الذى أريد أن أقوله هنا لادهش نفسى قبل أى أحد اخر أن الفساد ليس بقدر المال المسروق ولا تقدير الثروات المنهوبة بالملاليم أو بالملايين او بالمليارات، المنهج هنا هو الخطأ هو الفساد ذاته.

الفساد ليس فى استغلال نفوذ من أجل ألف جنيه أو مليار بل الفساد هو استغلال النفوذ.

هو التربح.
وهو الإثراء غير المشروع..
هو نهب المال العام.
هو غياب الحسيب والرقيب.
هو إفلات اللصوص من العقاب.
هو حماية لصوص المال العام.
هو قسمة الثروة المنهوبة.
هو اعتبار الشعب غائبا وماله العام سائبا

الفساد هو انكار وجود الفساد والتعمية عليه والسكوت عنه هذا هو الفساد.

تتزايد ارقامه وتصيبنا بالتفجع، لكن فى النهاية هو الفساد.. هو بذرة نمت وترعرعت واثمرت، انا اتحدث عن البذرة والتربة ولايهمنى كثرة المحصول من قلته(!!).

نأتى إلى صناعة التيار الدينى التى قام بها السادات والتى يقال إنها غير حقيقية وان ما يروج تلك المقولة إنما يدارى فشل اليسار فى استثمار المناخ الديمقراطى الذى منحه السادات للجميع ونجح فيه التيار الإسلامى (!!). والمشكلة أن مغالطات كثيرة تملا سطورا قليلة هنا اهمها:

١ ـ ليس صحيحا أن اليسار فشل!!

إطلاقا، فمن إذن الذى فجر مظاهرات يناير ٧٢ التى كانت حافزا فعليا على حرب اكتوبر، ومن هم الكتاب والصحفيون الذين كانوا وراء إصدار بيانات ضج بها الحكم والسادات شخصيا إلى الحد الذى اعتقل منهم من اعتقل وطرد من طرد (!!)(و بالمناسبة اين الديمقراطية هنا) وقد استمر نجاح اليسار حتى ١٩٧٧ ومظاهرات الجوع والانتفاضة الشعبية ثم امتد حتى الوقوف ضد التطبيع وشل الهجمة الصهيونية لدمج مصر فى المشروع الأمريكى الإسرائيلى، كان نجاحا سياسيا باهرا أدى إلى رمى اليسار كله رجاله كباره وصغاره فى السجن والمعتقلات فى سبتمبر ١٩٨١.

٢ ـ إن السادات صنع التيار الدينى صناعة على عينة، شهادات التاريخ والجغرافيا وحساب المثلثات، كل هذا يثبت أن التيار الدينى فتحت له كل الأبواب عمدا، واغدق عليه بالأموال الهادرة.. وكمال أدهم وعثمان أحمد عثمان ليسا ببعيدين..

وغيرهما عشرات والشهادات تملأ كل مكان ولا مبرر لإنكار يبدو طيباً مغرقا فى الطيبة وتجاهل الحقيقة!

٣ ـ لا شأن لى نجح حزب التجمع الذى صدر باشارة ضوء أخضر من السادات او لم ينجح، ونجح حزب العمل الذى نشأ برعاية السادات أو لم ينجح فالأحزاب كلها وهمية وإذا كان للسادات أنه سمح بحرية تكوين الأحزاب فهو أيضا الذى منع تكوين احزاب تقف ضد كامب ديفيد او المعاهدة المصرية الإسرائيلية، وكان هو من وضع الأحزاب وعطلها.

وهو أيضا ـ فى الحقيقة ـ الذى بلانا بهذه الأحزاب الهامشية الورقية التافهة التى اضرت بالديمقراطية وانعشت الفساد أكثر مما عضدت الديمقراطية وواجهت الفساد!!

يبقى امر اخير تفصيلة صغيرة لا أحب أن افوتها وهى طرد الخبراء السوفييت الذى يعتبره البعض نصرا للسادات.. والعجيب انهم يغفلون عن عمد أن السادات هو الذى وقع معاهدة الصداقة بين مصر والسوفيت(!!) ويغفلون عن عمد أن الخبراء الروس لم يطردوا كلهم بل بقى منهم فى الجيش المصرى من شارك فى حروب أكتوبر كما شاركوا قبلها فى حرب الاستنزاف، وحرام أن نتعامل مع خبراء وعلماء ومهندسين وفنيين على اعتبار أنهم ذوو عقيدة سياسية وليس باعتبارهم خبراء كانوا ينشرون العلم والعمل والخبرة والتقنية(!!) إنها نفس المشكلة التى ستجعل بعض المتعصبين المتطرفين يرفضون الخبراء الفرنسيين فى مترو الانفاق لأنهم مسيحيون(!!) أو خبراء ألمانا فى محطات الكهرباء لأنهم نصارى!! إن هذا الخلط وتلك الرؤية الضيقة قد تعصف بنا جميعا فى يوم من الأيام (!!).

عزيزى الصديق الكبير محمد عبد القدوس: لم يكن السادات سابقا لعصره، بل كان ابنا لعصره ولنظامه وثورة يوليو وأسلوب حكمها وطريقة إدارتها للبلد، كان وجها اخر من العملة..

لكنه ـ رحمه الله ـ كان لطيفا وخفيف الظل ايضا وسياسيا داهية ومثيرا وثريا فى شخصيته وهى أشياء قد تبرر له بعض ما فعل، ولكن لاتغفر له كثيرا مما فعل..■

إبراهيم عيسى